فلسفة الثورات العربية ومسألة العنف السياسي

د. أمـــــــــال موهوب
قسم الفلسفة ،جامعة الجزائر2

"إنّ العنف الذي يتكلم هو عنف يبحث عن المعقولية ،إنّه عنف دخل مدار العقل،أي العنف وقد بدأ ينكر ذاته كعنف"

بول ريكورPaul Ricoeur

Abstact :

For every action there are determinants and manifestations, the first have to do with motivations whereas the latter refer to the aspects and the ways by means of which actions are realized. Put in these terms, political action is shown to have determinants, which consist in the relation between those who rule and those who are ruled, and manifestations as the space of the reactions resulting from such a relation regardless of whether these reactions are in conformity with the established authority or in opposition to it in the form of violence? Thus characterized, the questions to be tackled are: why did the Arabic revolutions appeal to violence? How to promulgate rational discourse as an alternative to violence?

To deal with this issue we start first with a diagnosis of political violence in the Arabic revolutions and then proceed to present E. Weil's interpretation of violence in order to make use of it in the benefit of our subject.

Keywords: Arabic revolutions, violence, religion, philosophy.

Résumé :

L'objet de cet article est de traiter le thème de la violence dans les révolutions arabes contemporaines, violence découlant des révolutions arabes communément appelées « printemps arabe ».

Nous tenterons d'analyser ce phénomène en définissant ses causes, nous aborderons ensuite le rôle du discours religieux et philosophique dans ces révolutions.

Mots clés : les révolutions arabes, la violence, la religion, la philosophie.

الملخص:

لكل فعل محددات وتجليات، حيث تتمثل المحدّدات في الدوافع باختلاف أنواعها أمّا التجليات فهي المظاهر والكيفيات التي يتحقق من خلالها الفعل.

والسياسة فعل له محددّاته وتتمثل في علاقة المحكومين بالحاكم، وتجلياته هي ما تفرزه هذه العلاقة من ردود أفعال سواء كانت ردود أفعال مؤيدة للسلطة مثل الوفاق،المصالحة أو ردود أفعال معاكسة مثل العنف والذي يمثل موضوع هذا المقال،فهـــذا الأخير يهدف إلى تشخيص أوّلا أسباب العنف السياسي في الثورات العربية و ثانيا تقديم قراءة الفيلسوف الألماني إريك فايل E. Weil لظاهرة العنف ومن ثمّ محاولة إسقاطها على موضوع المقال:العنف في الثورات العربية.

الكلمات المفتاحية: الثورة العربية، العنف، الدين ،الفلسفة.

إشكالية المقال: لماذا يمثل العنف جوهر الثورات العربية؟ كيف يمكن نشر الخطاب العقلاني من أجل التغيير في مقابل العنف؟

مقدمة:

لقد شهد العالم العربي المعاصر محاولات جريئة لتغيير الأنظمة السياسية القائمة، ومن ثم تغيير الكثير من القيم الاجتماعية السائدة؛و فعل التحول الذي قادته الجماهير العربية مقرون بهدف أساسي هو التغيير وقد استندت من أجل تحقيق ذلك إلى أساليب مختلفة تتفق في مجملها على سيادة أسلوب "العنف la violence "؛من هذا المنظور يحاول هذا المقال الموسوم بـ "فلسفة الثورات العربية ومسألة العنف السياسي"أن يقف أوّلا عند أسباب ظاهرة العنف ومن بينها تفشي الخطاب الديني المؤسس على مرجعيات غير دينية (النّص المقدس والسنة النبوية الشريفة) وهو أحد الأسباب في رواج فكرة العنف،ثم ننتقل إلى الحديث عن كيفية تهذيب العلاقة بين النقيضين العنف و اللاعنف؟ ومن ثمّ سنحاول الإجابة على الأسئلة الآتية: كيف نفسّر من جهة سيطرة الخطاب الديني وعدم قدرته على نشر فكرة اللاعنف؟ ومن جهة أخرى كيف نفسر عدم فعالية الخطاب الفلسفي في تسيير الثورات العربية؟

تتفق المعاجم اللغوية على أنّ مادة (ع-ن-ف)تقابل (ر-ف-ق) وتعني المعاملة بشدة، والقهر صورة للغضب ومنه أعنف الأمر:أخذه بشدة وعنّفه أي لامه بعنف وشدة.

العنف(*) هو كل عمل يضغط به شخص كفرد أو كشخص معنوي على إرادة الغير لسبب أو لآخر باستخدام القوة مع نفي استقلاله وحريته ووحدته الفيزيائية، فهو شعور بالغضب أو بالعدوانية يتجسد بأفعال دامية جسديا أو بأعمال معنوية تهدف إلى تدمير الأخر؛فالعنف انحطاط إنساني ناتج من عمق انفعال الغضب.

وهي ظاهرة معقدة تحكمها عوامل مختلفة ومتداخلة حيث يشكل موضوعا لعدد من العلوم كعلم النفس وعلم الاجتماع.....؛ ويمكن تصنيف أسباب الظاهرة إلى: الأسباب الاجتماعية والثقافية، الأسباب السياسية والاقتصادية والأسباب النفسية، وهذا الأسلوب "العنف" لا يولّد إلا أسلوبا مماثلا، وذلك ما ينبئ بنكوص ما هو إنساني نحو اللاإنساني.

أوّلا: إذا نظرنا إلى هذه الظاهرة في إطار التحولات السياسية والاجتماعية التي تعرفها المجتمعات العربية الإسلامية في المرحلة الراهنة فإنّه-من الناحية المنهجية- يتوجب علينا الانطلاق من الحديث عن جذور ظاهرة العنف في السياسة العربية على أساس جملة من الشروط الذاتية والموضوعية.

ولا ينبغي أن يفهم من المقدمة التي سننطلق منها أننا نعتقد أن العنف في السياسة العربية يمثل استثناء في المشهد الدولي، أو يمثل ماهية الإنسان العربي حيث أصبح يعرف بـ "الكائن العنيف" "الإرهابي"، "المتطرف"..... إنّ الإنسان العربي-مثل غيره- ذات متفاعلة بشكل ايجابي أو سلبي مع جملة من الشروط التاريخية السوسيو-ثقافية والدولية، التي ترّسخ أو تساهم أو تعوق ،أو غيرها من التأثيرات السلبية والايجابية التي تنتج ما يسمى بالخصوصية العربية [1].

لقد تميزت الممارسة السياسية العربية عبر مختلف أطوار تشكل الاجتماع السياسي العربي بسيطرة أسلوب العنف وذلك بمستويات متعددة خلال كل أطوار هذا الاجتماع، فظل العنف هو الثابت ضمن جملة المتغيرات في السياسة العربية. لقد كان النموذج الإرشادي للسياسة العربية هو فعل القمع المستدام،ومع أن مفهوم الراعي والرعية أدى دوره في أنماط الاجتماع العربي التقليدي،فتأسست في هذا السياق فكرة "المستبد العادل" الذي يسخر استبداده في حماية الحقوق، وجعل الرعية متساوية في الحقوق والواجبات عبر تمثل وظيفة "ظل الإله في الأرض"، ولكن الشكل التاريخي للسلطة العربية حاد عن: "هذا القدر الذي تتيحه فكرة المستبد العادل، وازداد الوضع سوءا مع ظهور الدولة الوطنية الحديثة بشروطها ونمطيتها التي قطعت مفهوميا على الأقل مع نمط دولة الرعايا ومفهوم المستبد العادل"[2].

إنّ القطيعة لم تتحقق مع النمط التقليدي للسلطة العربية الأمر الذي جعلها تظهر في صورة النمط الأعنف للسياسات في العصر الحديث،وذلك عندما نحلّل بنية العقل العربي فنجدها بنية سكونية متحجرة ودوغمائية ترفض الاستسلام والاعتراف بالأخر كبديل سياسي أو تطرف بينهم في تسيير شؤون الدولة وعليه فإنّ هذا يتنافى وتعاليم الدين مصداقا لقوله تعالى في الآية 38من سورة الشورى:**"وأمركم شورى بينكم".**

لقد تماهى مصير الدول في العقل السياسي العربي مع مصير شخص الحاكم، وبعبارة أخرى زوال الدول هو بزوال شخصية الحاكم، ومع استحكام العصبية بالدولة العربية أصبح لزاما أن يقال وفق المنظور الخلدوني للدول: "إنّ الهرم إذا نزل بالدول لا يرتفع" [3] .

وفي هذا السياق يجب الإشارة إلى أنّ فشل الدولة العربية في نمطها التقليدي أو الثوري في بناء سياستها خارج منطق العنف جعل منه حالة تكاد تكون بنيوية في طبيعة تشكل واستمرار الدولة العربية، وقد ساهمت الإخفاقات المتوالية في تكريس هذا النمط المتحكم المفرز لأنواع العنف السياسي والمؤسس لخطاب العنف السياسي؛ ومن ثم فإن العنف سيظل ظاهرة بارزة في السياسات العربية نتيجة هشاشة الدولة العربية.

ولم ينفك العامل التاريخي لشكل الدولة العربية ونمط السلطة في الاجتماع السياسي العربي عن جملة الشروط النفسية والاجتماعية للعنف، ولا مجال للحديث عن عنف السياسة العربية دون أن يكون متصلا بصورة مباشرة بالتكوين النفسي والاجتماعي والثقافي للاجتماع العربي،بالتربية التي يتلقاها الإنسان العربي في الأسرة ثم في المجتمع فتربيته لم تكن تربية إسلامية أصيلة تقوم على تعويد الطفل منذ الصغر على تقبل الأخر واستشارة الآخرين ولا تربية على النمط الغربي أي تربية ديمقراطية حيث تعلّم الطفل منذ نعومة أضافره على وجوب وجود الاختلاف في الآراء ،فقد نما الإنسان العربي في بيئة-غالبا-ما ينعدم فيها الحوار (الأب مع الأم،الأخ مع الأخت،الأب مع الابن.....) و يغلب عليها طابع فرض الرأي بالعنف والقوة و في الحالة المعاكسة يعتبر ذلك انتفاء للرجولة فيصبح منطق الذكورة هو الذي يحكم العلاقات الأسرية و الاجتماعية عموما؛وبهذا المعنى تصبح ظاهرة العنف في المجتمع العربي موروث اجتماعي لم نتخلص منه إلى يومنا هذا على الرّغم من التطور الحضاري و التكنولوجي.

إنّ الحاكم العربي في الدولة العربية يستلهم ثقافة العنف من المحيط السوسيو-ثقافي للعنف العربي نفسه، وفي ممارسته السياسية يضمن استمرار البنية العنيفة في هذا المحيط. ولهذا السبب يصبح الحديث عن الإصلاح أمرا معقدا فالسؤال المطروح: من أين نبدأ استئصال جذور العنف؟

هل نبدأ من الجذور الاجتماعية والنفسية والثقافية للعنف السياسي أم أننا نبدأ من إصلاح السياسات كمدخل ضروري للحد من ظاهرة العنف في المحيط الاجتماعي؟

نلاحظ أن أمام هذا النوع من الدور المنطقي ترتسم مفارقة الإصلاح في العالم العربي: فهل هو قدر الكائن العربي أن لا يعيش في دولة حديثة تقوم على الحق والقانون أم أنّه يجب القيام بتحليل أعمق لهذه الظاهرة المركبة؟

ثانيا: إذا استندنا إلى ما يحدث في المجتمعات العربية الإسلامية في المرحلة الراهنة فإننا نلاحظ سيطرة الخطاب الديني في مختلف المستويات (الشارع، المؤسسات التربوية، الإعلام.....)، فكيف نفسر ظاهرة العنف رغم أن الدين في مقاصده العليا رافدا للسلام والتسامح؟

ننطلق أوّلا من ضبط ثلاثة مفاهيم أساسية: القوة، والعنف، والإرهاب حيث يستعمل مصطلح القوة في القرآن الكريم استعمالا ايجابيا في مثل **قوله تعالى**: **"يا يحي خذ الكتاب بقوة"**[4]، فالقوة بنوعيها: مادية أو معنوية، ضرورية ومطلوبة باعتبارها عاملا أساسيا –كمصدر للعزة والكرامة- من عوامل بناء الحضارة، ولكن عند استعمالها استعمالا غير صحيح تصبح عنفا.

والعنف مفهوم سلبي ومرفوض في الأديان، والقيم الإنسانية والحضارات الراقية،فالعنف هو الاستعمال السلبي للقوة حيث تتحول من طاقة لبناء الذات والحضارة إلى طاقة تدميرية. ويسجل تاريخ البشرية أول حالة عنف-كما يذكرها القرآن الكريم- قتل قابيل لأخيه هابيل **فيقول تعالى: "فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله أصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا وليتي أعجزت هذا الغراب فأواري أخي فأصبح من النادمين من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون"**[5]

وفي هذا السياق يتكلم القرآن عن العنف ويدينه إدانة شديدة في مختلف أشكاله: إلحاق الأذى بالناس أو إفساد بالطبيعة[**]. ونقرأ في القرآن الكريم قصة فرعون التي تعبر عن القوة السلبية "العنف" في شخصية فرعون وطريقته في الحكم، وعندما تتم ممارسة العنف وتصل هذه الممارسة إلى ذروتها تصبح إرهابا.

لقد التقط الغرب مصطلح الإرهاب Terrorisme في سياق محاولاته للإمساك بالمصطلحات عن طريق الهيمنة على اللغة الإعلامية، إذ يصوغ المفاهيم ويسوقها إعلاميا وبادر إلى وصف المسلمين بالإرهاب في إطار منظومة من المفاهيم الهجومية تبدأ بالتشدد إلى التطرف إلى التعصب إلى الأصولية فالإرهاب[***].

ورد ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم ولكن بدلالة مغايرة لهذه الدلالة الشائعة، **فيقول تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله، وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوّفى إليكم وأنتم لا تظلمون "**[6]، وقد ورد ذلك في سياق الأمر بإعداد القوة، وقد وردت بمعنى خوف الله في آيات مختلفة (الأعراف: الآية 154، البقرة: الآية 39، النحل: الآية: 51).

ولقد درج كثير من الناس المحسوبين على الأمة بالعلم على ترديد آيات قرآنية كريمة مجتزأة لتبرير أو تمرير ما يريدون أن يوهموا به عامة الناس وحتى بعض مثقفيهم ...ففي الآية 60 من سورة الأنفال أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلة الكافرين حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: {وأعدوا لهم ما استطعتم} أي مهما أمكنكم {من قوة ومن رباط الخيل}. عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول وهو على المنبر:"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي("أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود". وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:)ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا(وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: (الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل اللّه ..... ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق اللّه في رقابها ولا في ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر) وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي.....

وفي الحديث: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل اللّه كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها" أخرجه الطبراني عن سهل بن الحنظلية". وفي صحيح البخاري قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم) وقوله: "ترهبون" أي تخيفون "به عدو اللّه وعدوكم" أي من الكفار. وفي الآية 61 من السورة نفسها يقول تعالى: **"وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"**،{وإن جنحوا} أي مالوا {للسلم} أي المسالمة والمصالحة والمهادنة {فاجنح لها} أي فمل إليها، واقبل منهم ذلك.

لقد حاول البعض انطلاقا من الآية السابقة الذكر(الآية 60 من سورة الأنفال) نفي صفة "السلم" عن الإسلام واعتباره مؤسسا للإرهاب، بينما التمعن في السياق القرآني لاستخدام المصطلح يبين لنا أن المقصود من الكلمة هو

"الردع" وبهذا يكون "الإرهاب" في القرآن الكريم مفهوما ردعيا يؤول في معناه العميق إلى طلب السلم لأن الردع يتوخى السلام، الإرهاب إذن هو محاولة الوقاية من الاضطرار إلى العنف المضاد بوصفه ردا طبيعيا وعادلا ومشروعا ضد العنف، وبالتالي فإن المقصود هو تجنب الحرب بإعداد القوة حتى لا يستهين العدو بالمسلمين، فيضطرهم إلى مواجهته بلغة العنف المضاد.

إن التوجه السلمي في الإسلام مخالف تماما لما هو سائد اليوم في المجتمعات الإسلامية، فنجد الكثير من المسلمين يعتقدون أن الحرب "الجهاد" مطلوبة في الإسلام، ويفتخرون بالعنف؛ لماذا؟

في اعتقادنا إنّ ذلك يرجع إلى أسباب أهمها: قانون "سيكولوجية المقهور" الذي يعيش رد فعل عنيف على خصمه، وذلك بتبني منهجه وعادة ما تكون الغلبة للقوي القاهر مرتين: مرة بأن يجرده من أسباب القوة ومرة بأن يجعله يتبنى مبادئه.

والحملة الإعلامية التي يقودها الغرب بإعلامه المستفز للإسلام والمسلمين وذلك بالتهجم على المقدسات الإسلامية حيث يكثر الحديث عن الإرهاب في الإسلام، فلا يذكر الإرهاب مقرونا بدين إلا بالدين الإسلامي، وهذه السيطرة الإعلامية الغربية جعلت المسلمين لا يتبنون هذه المفاهيم فقط بل ويفتخرون بها.

ونضيف إلى ما سبق ذكره إلى سوء فهم النصوص الدينية حيث لا تفهم سياقات استعمال القوة في القرآن فهما سلبيا. والقراءة الخاطئة للسيرة النبوية حيث يختزلها البعض في المعارك واختزال الأبعاد الحضارية والإنسانية والتشريعية والعمرانية والسلوكية في الفعل العسكري.

والأهم من ذلك الحالة السياسية التي تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية اليوم فهي تعيش حالة من التخلف السياسي يفصح عنها واقع الاستبداد والديكتاتورية، وأصبح من الواضح أن الأنظمة القائمة وسيلة لتحقيق مصالح القوة المسيطرة في العالم وكل من يحاول التغيير أو الإصلاح يصطدم برد فعل عنيف غرضه الإطاحة بهذه المحاولات ومن ثم ينشأ رد فعل لا شعوري هو الإيمان بأن القوة هي الحل فتتحول الوسيلة إلى غاية.

ثالثا: في هذا السياق العام ماذا يعني غياب الخطاب الفلسفي؟

لا تزال الفلسفة في السياق الثقافي العربي تحتاج إلى كثير من العمل للتأسيس لمشروعيتها كخطاب تأسيسي ونقدي، بعبارة أخرى كممارسة فعلية مؤثرة، فعندما نستقرأ المشهد الفكري العربي عبر مراحله التاريخية نجد أنّ الفلسفة غيبت وهمشت،واهتمت بالكلام الخارج عن المألوف تارة، كالزندقة والكفر تارة أخرى بحجة أنّ الفلسفة تتعارض مع الدين،غير أنّ الفهم الخاطىء للفلسفة حال دون وصول المجتمعات العربية إلى اكتساب أهمّ مقوّم هو الحس النّقدي. والأثر الذي أحدثه غياب الخطاب الفلسفي هو فقداننا لضرورة التأسيس المعرفي فالخطابات السائدة لا تستند إلى قوة معرفية عقلية مقنعة ولا تأخذ من السند المعرفي مشروعيتها باعتبار أن المقياس والحكم الذي هو منطق المعرفة غير حاضر والمجال مفتوح للمشروعيات الأخرى: مشروعية السلطة، والمنفعة الخاصة، والتقليد والتراث وغيرها من المرجعيات.

ولما كانت الفلسفة وحدها هي التي يمكن أن تميزنا عن الأقوام المتوحشين والهمجيين، فتقاس حضارة الأمم بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها كما يرى ديكارت، فإنه ينبغي أن يطرح موضوع العنف طرحا فلسفيا؛ كيف تواجه الفلسفة ظاهرة العنف؟ للإجابة على هذا السؤال ننطلق من جواب اريك فايل Eric Weil [*] على السؤال الآتي: لماذا يتكلم الفيلسوف عن الرغبات المشروعة والرغبات اللا مشروعة؟ حيث يجيب: "إنّه الخوف من الخوف، وهذا معناه الخوف من العنف من حيث هو شر أصلي"[7]، فصحيح أن الفيلسوف ليس جبانا، ومحاكمة سقراط تؤكد أنه لا يواجه الموت فحسب بل قد يختارها إذا ما اضطر للاختيار بين حياة لا عقلانية وبين نهاية وجوده، لكن الفيلسوف يخاف مما ليس عقلا فيه بل إنّ كل ما يقوله أو يفكر فيه يكون موجها لاستبعاد هذا الخوف، إنه لا يخاف الرغبة ولا الحاجة،

فكيف يخافهما وهو لا يخاف الموت، إنّ ما يخافه هو الخوف ذاته:"لأن الخوف هو الذي يدفعه أكثر من أي انفعال آخر إلى أن يفقد السيطرة على ذاته"[8]، حقيقة أن الفيلسوف قرر قبول العنف وتحمل كل ما يمكن أن يحدث له، ومقاومة كل ما يريد السيطرة عليه، لكنه يريد: "أن يختفي العنف من العالم، وهو يعترف بالحاجة ويقبل الرغبة ويقر إن الإنسان يبقى حيوان مع كونه عاقلا المهم لديه هو استبعاد العنف"[9].

إنّ استبعاد العنف هو اختيار فلسفي، ولذلك يعرف فايل Weil الإنسان تعريفا مختلفا عن التعريف الشائع (الإنسان حيوان عاقل): "بدل القول أن الإنسان كائن عاقل سنقول أنه كائن يستطيع إذا اختار ذلك أن يكون عاقلا، وإنه باختصار حرية للعقل أو للعنف"[10]. وهذا التعديل في تعريف الإنسان يدل على وحدة الفلسفة وتاريخها، فلا وجود لفلسفة نسقية منفصلة عن وعي الفلسفة بتاريخها الخاص، بل أكثر من ذلك الفلسفة لا تفهم إلا في تاريخها وهي ليست سوى الوعي بتاريخها وهو ما يتناساه الخطاب النسقي وينكره.

إن الفلسفة كبحث عن الحقيقة تسير دائما في الاتجاه اللانهائي للحقيقة: "الفلسفة....ليست سوى البحث عن الحقيقة"[11]،فيذهب الفيلسوف الألماني كارل ياسبرس Jaspers. k(1883-1969) إلى القول إنّ الفلسفة هي بحث عن الحقيقة ،ولا يدّعي أحد أنّه يمتلك الحقيقة ومن يدّعي ذلك فهو دوغمائي،واحتكار الحقيقة من منظور الفلسفة هو ما يولّد الدوغمائية والذي يؤدّي إلى أحادية الرأي ومنه إلى العنف؛فالفلسفة باعتبارها خطاب يعلم الإنسان كيف يتخذ قرارا إذا أراد أن يكون عاقلا والأهداف التي يتعين إتباعها، وكيف ينبغي تنظيم المجتمع لتحقيق حياة معقولة وذات معنى.

كيف يمكن للفلسفة أن تسهم في التقليل من التوتر والعنف في المجتمع؟

يجب في هذا السياق التأكيد على نقطتين أساسيتين تعمل الفلسفة على تكريسهما في المجتمع:

1- **حرية الاختيار:** إن المسؤولية الأخلاقية للإنسان في الاختيار بين أن يعيش حياة "عاقلة" أو حياة "عنيفة" بعبارة أخرى يملك الإنسان حرية الاختيار المضاد للطبيعة، فإن كانت الحالة الطبيعية للبشر –كما يؤكد تاريخ البشرية- هي الحرب، فالإنسان هو الكائن الذي يقدر على رفض الطبيعة في نفسه وإنكارها والوسيلة التي يتخلص بها من العنف هي الكلام والنقاش والحوار.

إنّ قدر البشرية أن تختار بين طرفي: إما البقاء وسط الطبيعة أي البقاء في حالة الحيوانية أو الوقوف ضد المعارضة ورفض العنف والتكلم أي أن يصبح الإنسان فيلسوفا.

2- **ضرورة الخطاب:** فالعنف يصبح متجاوزا عندما يتكلم الإنسان حيث يكون حديثه من وجهة نظر كونية وليست فردية، والفلسفة هي تشييد خطاب متماسك. فبالرغم من أنه لا يوجد خطاب واحد بل توجد خطابات كثيرة لكن يمكن ضمان أساسا مشتركا لمختلف الخطابات الخاصة: خطاب يقودنا فيعطي معنى لحياتنا.

وممّا سبق ذكره يصبح السؤال عن مستقبل الفلسفة هو سؤال حول الراهن، وفي هذا المقام الغرض من الخطاب الفلسفي هو فهم ظاهرة العنف أولا وإخضاعها للعقل ثانيا، وبذلك فهي "الفلسفة" تعرض نفسها كإرادة لخطاب كلي وشامل قادر على فهم الإنسان فهي: "لا تريد أن تنفي وجود اللامعقول والعنف الصادر عن الطبيعة وعن البشر، بل هي تريد إخضاع كل ذلك، إنها لا ترغب أبدا، حتى من أجل هذا، في الاندفاع وسيطرة القوى المظلمة في النفس وفي التاريخ. إنها تريد تحقيق وحدة الإنسان والإنسانية، ويمكن القول تحقيق إنسانية الإنسان داخل خطاب تتم إقامته في سبيل عمل معقول، أي قابل للتعميم وكذلك مصاحب ومؤسس له. إنّ الفلسفة تريد ذلك وتبحث عنه، إذن فهي لا تملك، كما تعلم عن يقين أنها تريد معرفة بالحقيقة، وتريد شيئا أكثر من الاعتقاد بأنها تعرف"[12].

إنّ الفلسفة على يقين تام من شيء واحد هو إرادتها الخاصة في الفهم وفي توحيد خطابات البشر داخل خطاب واحد يرد كل خصوصية وكل تميز إلى الدور الذي يؤديه كل عنصر داخل الكل الذي لا يكون كلا بدون ذلك العنصر، إذ مهما كان ذلك العنصر عشوائيا وعنيفا في رفضه للفهم، فهو يبقى، رغما عنه مجرد عنصر من الكل.وما ينبغي

الإشارة إليه أنّه مهما تعددّت مواقف الفلاسفة واختلفت أرائهم إلا أنّهم يتفقون أنّ العنف ظاهرة غير حضارية وبالتالي فهم يرفضونه ويرون أنّ الفلسفة هي الكفيلة بمحو هذه الظاهرة ،باعتبارها –الفلسفة-فكر تنويري وتوجيهي ،والفلسفة من منظور الفلاسفة هي أوّلا وقبل كل شيء فكر بيداغوجي تربوي.

ومن الأهداف السامية للفلسفة هو القضاء على العنف والعمل وحده غير كاف لتحقيق التفاهم المتبادل بين الأفراد، بل لابد من وضع خطاب متماسك يسمح للإنسان أن يحقق داخل الجماعة تفاهما بين أناس حقيقيين فالفيلسوف حين يتكلم لغة تخصه إنما يبحث عن لغة كونية.

تستمر الفلسفة إذن بفعل الحاجة إليها فصحيح أنها لا تنتج عن ضرورة كما اعتقد هيغل Hegel (1770-1830) –في اعتقادنا- بل تنتج عن اختيار كما يري فايل، لكن توجد دوما إمكانية لاختيار العنف لأن الإنسان يمكن أن يختار ضد الفلسفة وضد كل أشكال العقل وينتج عن ذلك أن الفيلسوف بدوره لم يفعل شيئا سوى أنه اختار، ضمن حرية الاختيار، لصالح العقل، وهذا ما يمثل مؤشر على انبعاث الفلسفة باستمرار فور تراجع الضغط الأخلاقي والثقافي والأمني ورفع الرقابة.

وعندئذ نتساءل مع فايل عن مستقبل الفلسفة والفلاسفة في مواجهة العنف؟ حيث يجيب: "في الواقع يمكن- وهذه الإمكانية قد أصبحت حقيقة أكثر من مرة، في الماضي كما في الحاضر- أن ينتصر العنف أو تتغلب رؤيا دينية أو لا دينية أو موازية للدين في إقناع الأغلبية، أو إقناع جماعة المسيرين، أو تقوم الأغلبية والمسيرين بالدفاع عن تقليد مقدس، بحيث لا يسمح بظهور أي تشكيك فيه. وإذن فمن الممكن أن نجد الفلاسفة..وقد أطبق عليهم الصمت، إما بواسطة الرقابة أو السجون أو بواسطة الجلاد، وهو الأمر المؤكد باستمرار. وسيكون من الخطأ نسيان هذه الإمكانية لأنه ليس سقراط وحده من تعرض لهذا العقاب الجذري"[13]

وفي الواقع لا يمكن الحديث عن خطاب فلسفي ما دمنا نتجنب الواقع، وما دامت البديهيات الموروثة عنه هي التي تقدم ما يقوم كتوجه وكعالم، فالمواجهة بين الفلسفة والعنف محكومة بإمكانية الاختيار: اختيار العقل واختيار العنف، والفلسفة تنتعش بكل تأكيد خلال الفترات التي هي غير فترات الصمت.....ولكنها كذلك ليست فترات الاسترخاء الفكري والاطمئنان الاجتماعي والسياسي والأخلاقي" [14].

وخلاصة القول أنه إذا كان العقل هو القاسم المشترك بالنسبة إلى الإنسان وكانت سلوكيات العنف واللا تسامح تصدر عنه بشكل أو بآخر فإن الحكمة ليست في متناول الجميع من حيث أنها تتجاوز كل العمليات الحسابية الضيقة والأقيسة المنطقية العقيمة، إنها تسعى إلى لمّ شتات العناصر المتعددة رغم تنوعها وتنافرها لترقى بها فوق منطق الحيوانية وفوق الاعتبارات "اللاإنسانية"؟ فالحكمة في هذا السياق تمثل أسلوبا مميزا لتسيير شؤون الأفراد في ظل ثقافة الحوار والتسامح،و هذان المفهومان من صميم الدين الإسلامي.

الهوامش:

(*) **العنف**: تعرف باربرا ويتمر B.Withmer العنف في الأنماط الثقافية للعنف: "العنف خطاب أو فعل مؤذ أو مدمر يقوم به فرد أو جماعة ضد أخرى" بمعنى انه كل تعنيف في استخدام القوة.

ويعرفه جميل صليبا في المعجم الفلسفي: "فعل مضاد للرفق، ومرادف للشدة والقسوة، والعنيف هو المتصف بالعنف، فكل فعل يخالف طبيعة الشيء، ويكون مفروضا عليه من خارج، فهو، بمعنى ما، فعل عنيف".

أما في معجم قاموس علم الاجتماع فإنّ: "العنف يظهر عندما يكون ثمة فقدان للوعي لدى أفراد معينين أو في جماعات ناقصة المجتمعية، وبهذه الصفة يمكن وصفه بالسلوك اللاعقلاني".

أما أندري لالند André Lalande فقد ركز على تحديد مفهوم العنف في أحد جزئياته الهامة: "إنّه عبارة عن فعل" أو عن "كلمة" عنيفة – فأول سلوك عنيف هو الذي يبتدئ بالكلام ثم ينتهي بالفعل".

1- إدريس هاني، ما وراء المفاهيم، الطبعة الأولى، دار الانتشار العربي، لبنان، 2009، ص171.
2- المرجع نفسه، ص172.
3- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق :علي عبد الواحد الوافي (القاهرة: نهضة العرب، 2004)،ص98
4- سورة مريم، الآية: 12.
5- سورة المائدة، الآية:30- 31-32.
(**)- يعبر القرآن الكريم بالثنائية "الحرث" ويعني الطبيعة والبيئة و"النسل" كرمز للوجود البشري.
(***)- إن الأداء الغربي تجاه المسلمين والحركات الاجتماعية والسياسية المناهضة لسطوته العسكرية أو الاقتصادية أو الثقافية يرجع إلى القرن 19، فالعودة إلى وثائق الاستعمار البريطاني والاسباني والفرنسي تؤكد أن كل من قاوم الاستعمار يوصف بالتطرف والتعصب والأصولية؛ إلى أن أصبح بعد ذلك مصطلح الإرهاب مصطلحا جامعا لهذه الصفات.
6- سورة الأنفال، الآية: 61.
(*)- إريك فايل (Eric Weil) فيلسوف ألماني معاصر (1904-1977)، من أهم كتبه منطق الفلسفة، مستقبل الفلسفة.
7- Eric Weil , Problémes Kantiens ,(paris :Ed : vrin, Paris, 1990), P174.
8- Eric Weil, Logique de la Philosophie,(paris : Ed: vrin, 1985), P19.
9- Ibid, P19-20
10-Ibid, P68.
-11Ibid, P89.
11-Eric Weil, L'avenir de la Philosophie, Textes Réunis Par J.Quillien,(paris : Presse Universitaires De Lille, 1987), P17.
12-Léopold Flam, La Philosophie au Tournant de notre temps,(paris : P.U.F , 1970), P182.
13-Eric Weil, L'avenir de la Philosophie, Op.Cit, P19.

المراجع

باللغة العربية

1- إدريس هاني، ما وراء المفاهيم، الطبعة الأولى،(لبنان :دار الانتشار العربي،2009).
2-ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد الوافي،(القاهرة:نهضة العرب،القاهرة،2004).

باللغة الأجنبية

3-Eric Weil , Problémes Kantiens,(Paris :Ed : vrin, Paris, 1990)
4- Eric Weil, Logique de la Philosophie,(paris : Ed: vrin, 1985) .
5-Eric Weil, L'avenir de la Philosophie, Textes Réunis Par J.Quillien,(paris : Presse Universitaires De Lille, 1987).
6-Léopold Flam, La Philosophie au Tournant de notre temps(paris : P.U.F , 1970)